

أبو فارس حميد العزيز المروزي المكناسي

للاستاذ محمد العيسى حمدان

ينتمي هذا الشاعر الى قبائل زناتة التي تربطها بالمرينيين روابط النسب ، ولعل في هذا الانتماء ما يفسر الاسباب التي جعلته يتوفق في أن يصبح شاعرهم الرسمي المتجلية في معرفته الواسعة بقبائلها وافخاذها وبطونها ، واثار هذه المعرفة غيما ذبجه فيها من اشعار شهرت بالمرينيين ومكنت لدولتهم .

ليس غريبا اذن ان يتخذه الامير ابو مالك عبد الواحد ولي عهد الملكة رفيقه ومناديه وكاتبه المختار ، وان يستعمله الامير يوسف بعد وفاة اخيه وتولييه العهد من ابيه ، هذه المعرفة وهذا التقريب ، هيا له ان يتبوا منصب شاعر الدولة التي لم يسعد بها حتى الشاعر الكبير ابن المرحل ، وهو من هو سلاسة قول وعذوبة لفظ ، فاصبح ينتقل معهم في جل اسفارهم وحروبهم ليسجل بشعره نشاطهم المعماري وجهادهم البطولي ، ولعل في معرفته باللسان الزناتى مساعدا له في ذلك ايضا .

ولا ندري متى اتصل ابو فارس بقصر المرينيين قبل ان نفاجأ به كاتبا للامير ولي العهد سنة 669 هـ ثم شاعر دولتهم الرسمي ، غير ان مكانة ابي فارس الشعرية هذه في بلاط المرينيين لم تمنح مكانته العلمية

لا تذكر دولة المرينيين دون ان يقرن معها ميلاد القومية المغربية والحضارة ذات الطابع المغربي الخالص في شتى مجالات العلم والفن والعمارة والادب . ولا تذكر منجزات العصر المروزي الاول بالخصوص دون ان يتبادر الى الذهن بطلها العظيم المنصور ، الذي اشتهر بما خلفه عهده من منجزات حضارية ، وما شيد فيه من مدارس ومارستانات ومساجد ، وما بذله في سبيل نصرة الاسلام وحماية دياره عن طريق الجهاد ، ثم عنايته برجال العلم والدين والادب ، وفي العدد الهائل من اعلام هذا العصر دليل على ما امتاز به عهد هذا السلطان .

كانت هذه المقدمة ضرورية وانا بصدد الحديث عن اديب هذا العصر الذي لم يسعده الحظ بالتفاته عادلة من كتابنا وادبائنا حتى ينال نصيبه من التعريف الذي يستحقه كشاعر رسمي لدولة المرينيين في عهد بطلها المنصور بما توفر له من امكانيات القول التي خلدت دولة المرينيين وابطالهم وتاريخهم وجهادهم ومنشأتهم مما جعل شعره سجلا تاريخيا لهذه الدولة بما سطره من ملامح رائعة عنهم ، انه الشاعر المحمى ابو فارس عبد العزيز المروزي المكناسي .

الشعرية كفتيه أهله لتولى منصب المكلف بالحسبة في المغرب ، هذا المنصب الذي يمزج بين مسؤولية وزارتي الداخلية والعدل في عصرنا ، في الوقت الذي كان يباشر مهمته ككاتب للامير ، وبذلك جمع بين عدة مهام في قصر المرينيين كغيره من أصحاب الكفاءة في القديم .

لقد بلغت علاقة شاعرنا بولي عهد الدولة درجة من الصداقة والالفة جعلت الامير ابا بكر لا يستغنى عن كتابه ، لما كان يجده في صحبته من انس وثقافة وظرف لا شك ، ويروى الكثير عن هذه العلاقة التي تعدت المجال الرسمي لتدخل مجال رفع الكلفة بينهما ، يروى صاحب الذخيرة بعد ذكر صفات وأخلاق الامير قصة احدي الجلسات بين الامير وشاعره فيقول : دخل عليه (على الامير) شاعره عبد العزيز المزورزي في يوم من شهر رمضان وهو بقصره بحضرة مراكش وكان يوما قد استقرت فيه السماء بالسحاب ، والنهار يبكي بالدموع كأنه عاشق صد عنه حبيبه ، وتمعلت دموعه ، وكان الرعد يهدر هدرته ، والبرق .. وكان المجلس الذي كان فيه الامير قد فرش بأصناف الرياحين والورد والبنفسج .. فقال له الامير عبد الواحد : يا عبد العزيز ارايت ما احسن هذا النهار ، لو كان في غير شهر الصوم ، ثم امره ان يقول في ذلك المعنى شعرا فأنشد ارتجالا على البديهة :

اليوم يوم مدامة وعقار
وتبلغ الآمال والأوطار
او ما رايت الشمس اخفى نورها
وتسترت عن اعين النظر
وبكى السحاب بدمعه فكأنه
دنف بكى من شدة التذكار
والبرق لاح من الغمام كأنه
سيف تالق في سماء غبار
لا شيء احسن فيه من نيل المنا
بمدامة تبدو وكشعلة نار
لولا صيام عاقنى عن شربها
لخلعت في هذا النهار عذارى
لو كان يجزى عن صوم او فدا
ما صوم شهر في صيام نهار
لكن تركت سروره ومذاقه
حتى اكون عليه ذا اقرار

وعلى ذكر هذه الابيات يروى صاحب الذخيرة ان الامير اجازته بخمسمائة دينار وكسوة ولكن الوكيل بذلك اعطاه الدراهم ناقصة واعطاه الكسوة من اثواب خشنة ، وكان الوكيل حاجا ، فكتب الشاعر الى الامير يشكو اليه فيها من فعل الحاج الوكيل ، ومما جاء في شكاته قوله :

ان كانت الحجاج طرا مثله
لا بارك الرحمن في الحجاج

فضحك الامير وأمر بانصافه وتعويضه ، بل ان مستوى العلاقة يصل الى ان يزور الامير شاعره حين علم بمرضه من حمى أصابته بمراكش ، وكان بدا يخف منها فسأله عن حاله فأجاب :

لمراكش فضل على كل بلدة
وما ابصرت عين لها من مشابه
وما هي الا جنة قد تزخرت
ولكنها حفت لنا بالمكاره

ويتجلى عمق العلاقة الذي يربط الشاعر بأميره ان يخصه بالمدح في قصيدته التي أنشأها بعد انتصار المنصور بحضور ولديه مالك وأبى يعقوب على أمير تلمسان يغمراس سنة 670 والتي يصف فيها القتال ويمدحه فيها بقوله :

ابا مالك لا زلت للملك مالكا
لك السعد بيت والسيوف تائم
اتاكم به يغفور يقدم جمعه
ولم يدرك أن الحين في الجيش قادم
ممزق ذاك الجيش كل ممزق
كما ممزقت ميتا بقبر قشاعم
هنيئا لكم نصر مبين على العدا
وطول سعود شأنها متداوم

لقد تركت وفاة الامير ابي مالك آلاما في جميع الاوساط الادبية ، وفي شاعرنا بالاحرى وليس ذلك بغريب ، فقد كان الامير كثر الحذب عليهم يجالسهم ويذاكرهم ، فلا غرابة ان نجد شاعرنا يرثيه بهذه القصيدة التي يرثي فيها الحياة بكاملها حين يقول :

حكم الزمان على الخلائق بالفناء
فالدار لا يبقى بها ديار

عش ما تشاء فان غايتك الردى
يبلى الزمان وتذهب الاعمار
فاحذر مسالة الزمان وامنه
ان الزمان باهله غدار
وانظر الى الامراء قد سكنوا الثرى
وعليهم كاس المنون تدار

انه يرى في موت هذا الامير انذارا بالخراب
والفناء :

في موت عبد الواحد الملك الرضى
لجميع املاك الورى انذار
ان ليس يبقى في الملوك مملك
الا اتته منية وبوار
ناديته والحزن خامر مهجتي
والقلب فيه لوعة واوار
يا من بيطن الارض اصبح آتلا
انغيب في بطن الثرى الاقمار ؟ !

وينهى قصيدته بهذا البكاء وهذا الاستعبار طالبا
من زائري قبره الدعاء له بالرحمة والغفران :

لما وقفت بقبره مترحما
بان العزاء وهاجنى استعبار
فبكيت دمعاً لو بكت بمثاله
غر السحاب لم تكن امطار
يا زائريه استغفروا لملككم
ملك الملوك فانه غفار

ورغم ان علاقته بالامير يوسف فيما بع دلم تكن
متانة ما كان بينه وبين ابي مالك الا ان هذا لم يمنعه
من ان يشئ فيه قصائده ، من ذلك قصيدته فيه حين
ذ له المنصور البيعة سنة 971 ، وبعد ان يقدم
سعره بوصف جميل لمدينة سلا ومناظرها التى اخذت
هذه البيعة يقول :

لله درك يا سلا من بلدة
من لا يعاين مثل حسنك ما اشتقى
قد حزت برا ثم بحرا طاميا
وبذاك زدت ملاحاة وتزخرفا
فاذا رايت بها القطائع خلتها
طيرا يحوم على الورود مرغفا

ثم ينتقل الى المدح واصفا اياه بالملك فى قوله :

ملك به تزهى الخلافة والسلا
وبه تجدد فى الرياسة ما عفا
من لم يزل يسبى الفوارس فى الوغى
ان سل يوما فى الكريهة مرغفا
الفن محبته القلوب لانه
ملك لنا بالجود اضحى متحفا
القى اليه الامر والده الذى
عن كل خطب فى الورى ما استنكفا

ان الوسط الذى يعيش فيه ابو فارس ودوره
كشاعر الدولة تحمله الكلمة من طوح لا بد ان تدفعه
الى توسيع مجال القول من الامراء ولاة العهد الى
الملوك ، وهو ما فعله شاعرنا الذى كان يعيش خضم
الاحداث السياسية والحربية ويساهم فيها بالمشاهدة
وابداء الراى .

فان تنقلاته وغزوات المنصور بالاندلس وجهوده
الحضارية المعمارية والعلمية كانت تجد الصدى البعيد
فى نفسه فكان يترجمها الى قصائد ينشدها بين يدي
ملكه من ذلك ما حدث سنة 680 بالجزيرة الخضراء
بعد غزوة يعقوب الكبرى حين جلس يوم عيد الفطر
يتلقى التهاني فانشده الشعراء ما جادت به قرائحهم
وكان نصيب ابي فارس قصيدته الطويلة ذات الخمسين
والمائتى بيت ، تلك القصيدة التى تحدث فيها عن
سيرة السلطان وغزواته وغزوات بنيه وحفدته ،
والتي امتدح فيها قبائل بنى مرين ورتبهم على منازلهم
وذكر فضلهم وقيامهم بالجهاد ، وقد انشدها بين يدي
المنصور الفقيه ابو زيد الفاسى المعروف بالغرابل ،
ونال عنها جائزة المنصور الف دينار كما نال قارئها
مائتى دينار ، وهذه بعض مقاطع القصيدة يقول :

لؤلؤنا امير العدل ملك
به انسلبت يد الكفر انسلابا
ولم نر قبله فى العصر ملكا
ارانا فى الغد العجب العجبا

الى ان يقول متحدنا عن جهاده وغزواته التى
انتقل فيها الى الاندلس اربع مرات وما فعله ذلك فى
نفوسهم :

وفي حديثه عن المرينيين ونسبهم الزناتى يرجع
بهم الى اصل عربى اما سبب لكتنهم فيقول عنه :

فجاورت زناتة البرابرا
فصبروا كلامهم كما ترى
ما بدل الدهر سوى اقوالهم
ولم يتبدل مقتضى احوالهم
بل فعلهم اربى على فعل العرب
فى الحال والآثار ثم فى الادب

وقد رأى بعض الباحثين فى البيت الاخير ما يدل
على شعريته فى صاحبه ، وما هو كذلك يؤكد رأى ما
جاء فى قصيدته التى القاها بالجزيرة بعد حديثه عن
البربر واعمالهم قوله :

واذكر خدمة العرب التى قد
اعزتهم لدى الموتى جنابا
فجاوزوا عنده اعلا مكان
مكان لن يرام ولن يصابا
فأنتم ايها العرب انتصرتهم
لعزكم فالزمكم منابا
ليس لحير لكم انتسابا
كذلك مرين ان رفعوا انتسابا
وانتم اخوة نسبا وصهرا
فما حدثتم عن الفخر اجتنابا

ويثير استغرابنا فيما تبقى من شعره خلوه من
اية قصيدة فى ابي يعقوب يوسف رغم انه عاش تحت
ظل دولته اثنى عشر عاما من 685 الى 697 وهى
سنة وفاة الشاعر احتفظ له يوسف بمهمة الحسبة
التي كانت له بل واضاف اليه سنة 693 بمناسبة
المجاعة التى حلت بالبلاد مسؤولية جعل الصيعان
على مد النبى .

نريد بعد هذا العرض السريع ان نقف قليلا مع
شعر ابي فارس من خلال القصائد التى اوردنا له وهى
قصائد متنوعة الاغراض رغم قلتها ، لتقييمه واستخلاص
ثقافة صاحبه ، واول ملاحظة نستخلصها من شعره
انه عبارة عن منظومات تاريخية ليس فيها كد للذهن
عند الشاعر او خيال واسع فسيح فكانما وضع امامه
كتبا تاريخيا عمل على نظم ما جاء فيها من احداث
ليترك لنا ارجوزته الكبرى نظم السلوك او قصيدته

فجاز البحر مجتهدا مرارا
يقود الى العدا الخيل العربا
فالبس ملهم ذلا وصارت
به الاملاك تهب ارتبابا

ويخبر انه سيخلد هذه البطولات فى شعره بقوله :

ساودع فى غزوهم فى الروم نصا
نظاما لا اخاف به اضطرابا
واذكر من وقائعهم امورا
يصير بهن طعم الشرك صابا

ثم ياخذ فى سرد الاحداث منذ جاز المنصور البحر
اول مرة للجهاد واضعا المعارك المختلفة التى جرت
له هناك ويختم بمثل هذا القول :

هنيئا يا امرين لقد علوتم
بنى الاملاك باسا وانتجابا

وللملوزى بالاضافة الى ذلك ارجوزة تاريخية
سماها نظم السلوك فى ذكر الانبياء والخلفاء والملوك
نستطيع من خلالها التعرف على مدى ثقافة الشاعر
التاريخية ، وقد كانت هذه الارجوزة شبه مفقودة
الى ان عثر عليها الاستاذ بنمنصور فنشرها كاملة فى
كناش خاص ، وقد بلغ عدد ابياته ازيد من الف وثلاثمائة
بيت ومن قوله فيها متحدثا عن يعقوب المنصور :

سيرته ان يقرأ الكتابا
ويذكر العلوم والآدابا
مجلسه ليس به فجور
ولا فتى فى قوله يجور
كانهم مثل النجوم الزهر
ومثلهم يعقوب مثل البدر

وقد كان لحزمه وعدله نتائج طيبة على البلاد
والعباد :

فامن الغرب من الفساد
ونشر العدل على البلاد
ولم يدع فى الغرب من يجور
وزالت الاهوال والفجور
ورفع الظلم عن الرعية
وقوم الطفاة من البرية

بالجزيرة الخضراء ، الا ان هذا لا يمنع من القول من ان هذا الشعر كان ياتيه يسيرا بسبب ثقافته اللغوية والتاريخية التي لا يقف حاجزا امامها اى موضوع مهما كان .

وقد ترك ابو فارس قصائد ذاتية تدل على انه كان احيانا يخلو الى نفسه مع قلبه وانفعالاته فقد اشار الاستاذ كتون الى انه عثر اثناء بحثه في أوراق الشاعر بأحد اديرة غرناطة على أوراق بها شعر نظمه ابو فارس بتملمان يتشوق الى بلده بمكناس وأمداح مختلفة وخلاف ذلك من الاغراض ، وهو ما اشار اليه ابن الخطيب حين قال عنه :

« كان شاعرا مكثرا سيال القريحة ، اماما بأيدينا فلا يمدو قصيدة واحدة بنها شوقه وعذابه وما يقاسيه من بعد الحبيب جاء فيها » :

أعلمت بعدك زفرتى وأنيى
وصبابتى يوم النوى وشجونى
أودعت اذ ودعت وجدا فى الحشا
ما أن تزال سهام تصمىنى
ورقيب شوقك حاضر مترقب
ان رحت صبرا بالاسى يفرىنى
من بعد بعدك ما ركنت لراحة
يوما ولا غاضت عليك شؤونى
قد كنت أبكى الدمع ابيض ناصعا
فاليوم تبكى بالدماء جفونى
قل للذين قد ادعوا فرط الهوى
ان شئتكم علم الهوى فسلونى
انى اخذت كثيرة عن عروة
ورويت سائره عن المجنون

وبإضافة هذه القصيدة الى مراثيه فى الامر أبى بكر ، وفى أبياته التى كان يرتجلها لساعتها وهو صعبة أمره ، ما يدل على انه كان شاعرا بالإصالة ، لكن يبدو انه لم يكن يهتم بتنقيح شعره ، اما عن مطولاته فقد أطلق عليها بعض الباحث اسم ملحمة ، ولكن الاستاذ بنتاويت يرى أن عناصر الملحمة فيها ليست مستوفاة اذ ينقصها الخيال المبدع .

والواقع أن مظاهر الملحمة عنده لها ما يبررها من خلال الاحداث والفزوات والحروب الطاحنة

المستمرة التى كانت تجرى بين المنصور ومسيحيى الاندلس ، وحركة الجنود فى العبور والعودة وحضوره فى هذه المشاهد ، بل وتتجلى فى المنصور نفسه بطل الدولة ، هذا النفس الملحمى شئ يمتاز به أبو فارس دون غيره من شعراء المغرب فيها خلفه من تلك القصائد الطوال والاراجيز التاريخية التى يتبع فيها سير الاحداث بحسب تواريخها . .

ورغم ذلك فقد اخذ على أبى فارس بعض المآخذ المختلفة فى شعره من ذلك انه كان يطلب مقابل ما يقدمه من اشعار فى صراحة تامة كما جاء فى ختام قصيدته فى الجزيرة ، السابقة الذكر حين يقول :

مرىن لقد مدحتكم فوفوا
لمدحك ببقيته الثوابا
وقد ورخت دولتكم وصارت
حياتى يحدو بها الحادى الركابا
وكل منظم شعرا سيفنى
ويبقى فيكم مدحى كتابا

كما يأخذ عليه قلة ذوقه فى مخاطبة ولى العهد بلفظ ملك ويحضور الملك ، غير أن هذه المآخذ لا تصل الى حد الطعن فى شاعريته التى بوانه أن يكون شاعرا للدولة ، فقد بلغ أبو فارس من التقدير والاحترام فى بلاط المرينيين ما دفعهم الى أن يقتلوا شاعرا هجاء ، وهو عبد المهين بن محمد الاشجعى نزيل مراکش قبل وفاته بعدة شهور فقط .

الا أن هذه المكانة عند الشاعر لم تشفع له عند ملكه حينما أتى من التصرفات ما لا تسمح به سياسة الدولة ففى سنة 697 يقول صاحب القرطاس، نكب أمير المسلمين جماعة من خدامه منهم عبد العزيز المزورى الشاعر ومحمد الكنانى والفقير أبو يحيى ابن أيوب الى الصبر ، ويذكر صاحب الاطاحة زيادة فى الخبر حين يقول توفى خنقا بسجن فاس لسعاية جناها تهوره ، وهكذا انتهت حياة شاعر وانتهى ما أخذه أو جمعه من احوال وصفت بأنها كانت كثيرة ، ولكن شعره فى المرينيين خلد ولم يمت فكانوا الراحين فى الصفة ،